رحيل الشاعر جودت حيدر (١٩٠٤ - ٢٠٠٦)

«شكسبير العرب» ابداع يشف ويخترق

جودت حيدر الشاعر اللبناني باللغة الانكليزية، المعروف في الخارج اكثر مما هو معروف لبنانياً، رحل بعد ان جاوز عمره قرناً من الزمان.

حياته كانت زاخرة بالأحداث، بالمتغيرات، وبالإصرار على الكتابة للوصول الى عمق الساحة الابداعية، واختراقها الى المساحة الأوسع التي تظل على رحابتها تحت وطأة كل الظروف.

جودت حيدر الذي ولد سنة ١٩٠٤ تمكن خلال هذا العمر المديد ان يكون من الشعراء القلائل الذين برعوا في الكتابة التي تنطلق من اساس مشرقي، لتذهب بعيداً في اعماق الرؤى الغربية وفي المعطيات الحداثوية الجديدة.

جودت حيدر رحل تاركاً وراءه إرثاً ابداعياً يشكّل سمة ابداعية لها نكهتها، ولها خصوصيتها، ولها رؤاها التي تحاول ان تكتسب اعترافاً نقدياً يسوّغ وجودها وأهميتها.

شاعرية لا تعتمد فقط على الموهبة، وعلى الثقافة المكتسبة، بل على السفر ايضاً، فكل رحلة الى أي بلد في العالم، توازي قراءة اكثر من كتاب، وتمنح الشاعر المسافر طاقة ابداعية جديدة، وشاعرنا تمكن من زيارة دول عديدة، ومن الاقامة في غير عاصمة، ومنها فرنسا والولايات المتحدة الاميركية وعدد من العواصم العربية ايضاً.

تنقّل الشاعر من عمل الى آخر يتناسب مع المرحلة وظروفها، فقد عمل مديراً لجامعة «عالية الوطنية»، ورئيساً لجامعة «النجاح» في نابلس بفلسطين، وعضواً في «مجلس التعليم العالي» التابع لحكومتها، كما احتل غير مركز مهم في شركة «نفط العراق».

واللافت في الكلام على جودت حيدر أن هناك نقاداً غربيين يرون في نتاجه هامة ابداعية تقارب هامات جبران خليل جبران، وأمين الريحاني، وميخائيل نعيمة، ويعقدون المقارنات بينهم.

جودت حيدر الذي بلغ من العمر عتياً تمكن من ان يعيش شيخوخة استثنائية كما يقول عارفوه، شيخوخة عامرة بالحركة والنشاط والفاعلية، وقادرة على ان تعطي الحياة في هذا العمر نكهة تطيب لكل المسنين الذين يأكلهم اليأس والملل.

والشاعر حيدر كان عاشقاً للبحر عشقاً جماً، فكتب له نصوصاً عدة، واستغرق في تأمله ومناجاته، مستأنساً بما فيه من أشرعة ورايات، وبما لديه من امتدادات تمنح الشعر ما يرجوه، من رحابة وتفتح المدى امامه لينطلق في مرايا ذلك الفضاء الواسع.

ربما لم يلتفت الشعراء العرب القدامى كثيراً للبحر، كأن البحر كان غريباً عنهم، ليس ضمن اهتماماتهم، ولا يشكّل هاجساً لهم، او مصدر وحي، الا ان ايليا ابو ماضي في عصر النهضة ربما كان من الشعراء العرب الاوائل الذين تناولوا البحر في قصيدة «الطلاسم» التي تمثل مذهبه في «اللاأدرية» والتي جسدت حالة استثنائية من التأمل العميق للقضايا الوجودية والقضايا الميتافيزيقية.

يقول ايليا ابو ماضي «انت يا بحر أسير، آه ما اعظم أسرك/ انت مثلي ايها الجبار لا تملك أمرك/ اشبهت حالك حالي وحكى عذري عذرك/ فمتى أنجو من الأسر وتنجو؟ لست ادري».

اما جودت حيدر فيقول: «كن سريعاً كلحاظ العين ارتفاعاً/ وانظر من الافق الى الهوادي في البحر، ابدأ عطشى للحرية/ تسجد، وبقدرة قادر تنهض كالمصلين ما بين المد والجزر/ الله اكبر، الله اكبر/ لقد أيقنت ان الهوادي آمنت بالإنجيل والقرآن ديناً/ وأنا انظر اليها تركع بخشوع/ وتعمّد الشواطىء/ وتصلي صلاة الغروب والفجر على الرمال/ تتراجع لتبشّر بالتقوى ما بين الاسماك وسائر الكائنات في البحر».

أحب جودت حيدر لبنان، لم ينسه في حله

■ رسم للشاعر جودت حيدر بريشة الفنان وجيه نحلة

وترحاله، حمل هذا الحب الكبير معه الى اصقاع الدنيا، وظلّ على هذا الحب مغنياً جماله، متغلغلاً فيه، منصهراً في ثناياه، وساكباً في اعماقه نفحة الوفاء، ونسغ العشق الاول، يقول في قلعة بعلبك: «وانبرت الصواعق تفتت الحجر العنيد/ وها هي، وما زالت تقاوم كرّ السنين المتبارية، والتي تندب فشلها في تحويل الجدران الى رمال.

من جبال الصبر، قدت الحجارة/ لبناء جدران البقاء/ تلك التي بقيت الى الزمان/ إرثاً قديماً لا يشيخ/ ايها الآتون تذكروا ان جدران الماضي/ ستبقى ابداً بيت للزمان».

ذاق جودت حيدر اليتم باكراً، فبعد وفاة والدته، اخذه معه والده الى الاناضول، التي نفي اليها مع اخوته، فذاق مر المنفى، وعلقم الاضطهاد، وهو ما يزال طفلاً، وهذا ما اثّر كثيراً في تكوين شخصيته تكويناً صلباً ومتيناً.

تعرّف وقابل في حياته شخصيات ادبية وعلمية وسياسية متنوعة، ومن حسن حظه انه تعلّم على يد العالم اللبناني حسن كامل الصباح علم الرياضيات في الجامعة الاميركية، وتمكن رغم صغر سنه آنذاك ان يؤسس لصداقة متينة معه، فتحت امامه ابواب الثقافة ذات الطابع العلمي على مصراعيها.

كما تعرّف الى الشاعر العربي محمد مهدي الجواهري، والى الناقد والقاص اللبناني مارون عبود خلال عمله في جامعة «عاليه»، وتعرّف الى مفتي فلسطين الحاج امين الحسيني، وتعرّف بشكل عابر الى الشاعر الاميركي روبرت فروست، وتعرّف الى الشاعر الفلسطيني الكبير ابراهيم طوقان عندما كان مديراً لجامعة «النجاح» في فلسطين، وتعرّف الى المفكر عزّت درندة وإلى أمين التميمي وإلى رئيس الوزراء اللبناني الكبير رياض الصلح، وغيرهم.

كان يميل إلى الحكمة مستفيداً من خبرته في الحياة، ومن عمره المديد، ومن ثقافته، وكانت الكلمة ذلك الجسر الذي يطل عبره، ليصل إلى الآخر، ولهذا أخلص لها، ثابر عليها، وسعى ليعطيها من الجدة ما استطاع إلى ذلك سبيلا.

والشاعر بعلبكي اسماً ومسمّى. كان حكيماً وشجاعاً. ويجيد التصرّف حين يواجه مواقف صعبة. ويروي في كتاب مذكراته بعضاً من المشاكل التي واجهها، والتي يستشف القارىء من خلال ثناياها بعض ما كان يملك من سمات إنسانية راقية وعالية.

وضمن هذا السياق يروي انه عندما كان مديراً لكلية النجاح في نابلس، وبعد أيام من بدء الدراسة، جاء مدير البوليس، الانكليزي الجنسية، طالباً من الحاجب إخباره انه يريد مقابلته دخل الحاجب إليه يرتجف، وأخبره بأمر مدير البوليس.

بعد دقائق دخل مدير البوليس إلى مكتبه غاضباً ويحمل في يده كرباجاً. وما أن دخل حتى كلمه باللغة الانكليزية، ما الذي أستطيع أن أقدمه لك؟ فأجابه: أنت أميركي أم عربي؟ أجابه: لا يهم.. المهم ماذا تريد؟ قال: أريد أن أقفل المدرسة. لأن الطلاب يخرجون إلى السوق، فيدوسون الخضار ويخرّبون ويسيئون إلى الباعة والناس، ويهتفون ضد الاستعمار. فأجاب: لقد استلمت إدارة الجامعة يوم أمس، وأقول لك إذا خرج الطلاب وداسوا الخضار وأساؤوا إلى الناس وعمّت الفوضى، عندها

■ الشاعر جودت حيدر

يمكن مراجعة الدوائر المختصة للتحقيق في ذلك. أما إذا لم يحدث شيء مما تذكره، فإنه لا يمكن لأحد أن يقفل هذه المدرسة.

هذا وتعود علاقته بالشعر إلى مرحلة الدراسة في الولايات المتحدة الأميركية والمعروف أنه تأثر بأستاذ الأدب الانكليزي في جامعة «كوليج ستيشن» في تكساس، الذي كان يجيد قراءة الشعر ويحسن تفسيره، ويؤثر في الآخر بجاذبيته اللافتة في شروحاته المدروسة والمعبرة.

أما بدايته الفعلية في كتابة الشعر باللغة الانكليزية، فتعود إلى مرحلة الدراسة في جامعة «دانتون». وساعده على ذلك إعجابه بأستاذة الأدب التي كانت مولعة بالشاعر الإيرلندي زُقدْ والتي كانت لا تكفّ عن قراءته والثناء على هذه الشاعرية المميزة.

تفرّغ للشعر كلياً سنة ١٩٦٠ تاركاً وظيفته في شركة النفط العراقية. لكن القدر دفعه من جديد ليشغر بعض الوظائف. ثم دخل المعترك السياسي. وعندما أحس ان النجاح لن يكون حليفه في هذا المضمار، عاد إلى الشعر والأدب طائعاً وتائباً.

هذا، ولم يكتب بالعربية، إلا بعد ان توفي وحيده بسّام. فرثاه شعراً يعبر فيه عن مدى تصدّعه النفسي، وعن فظاعة المأساة التي ابتلاه الله فيها. ومنذ ذلك الوقت، أي سنة ١٩٨٤ أصبح يكتب باللغتين العربية والانكليزية. لكنه ظلّ أكثر ميلاً إلى لغة شكسبير، ليس لعالميتها بل لأنه يراها الأساس والأطوع والأقدر على احتواء شطحاته الابداعية.

لكنه يرى انه يؤخذ على أبناء لغة الضاد أنهم لم يهتموا بها الاهتمام الكافي، كما يهتم الفرنسيون والانكليزيون والألمانيون بلغاتهم. وهذا ما انعكس سلباً عليها.

كما أن التقهقر الذي يعيشه الشعب العربي منذ زمن، شغله عن همّ اللغة، فظلت - حسب رأيه - لغة القرن الخامس والسادس الميلادي. هذا على الرغم من اعتباره ان العربية من «أعظم لغات العالم، بل أعظمها على الاطلاق» ولقد أنجبت مبدعين يبقى شعرهم على مرّ العصور.

وفي إحدى الزيارات التي قام بها إلى المملكة المتحدة، يذكر في